

خطبة الزهراء (عليها السلام) في مسجد أبيها بعد اغتصاب حقها

<"xml encoding="UTF-8?">



روى عبدالله بن الحسن عليه السلام باسناده عن آبائه عليهم السلام أنه لما أجمع أبوبكر على منع فاطمة عليها السلام فذاك، وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلابها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ديوها، ما تحرّم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثم أتت أنه أجهش القوم لها بالبكاء، فارتج المجلس.

ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نسيج القوم، وهذأت فورثهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاه، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدّها، وتفاوت عن الإدراك أبدّها، ونذيرهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلايق بإجزالها، وتنى بالنذب إلى أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في الفكر معقولها.

المؤمن من الإبصار رؤيته، ومن اللسن صفته، ومن الأوهام كفيته.

ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنّها بقدرته، وذراها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلا تثبيتاً لحكمته، وتنبيةاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريئته، وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نقمته، وحياسة منه إلى جنته.

وأشهد أن أبي محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتبله، وأصطفاه قبل أن ابتعته، إذ الخلائق بالغيب مكنونه، وبستر الأهويل مضمونه، وبنيهاية العدم مفرونة، علماً من الله

تَعَالَى بِمَآيِلِ الْأُمُورِ، وَإِحَاطَةً بِحَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ الْمَقْدُورِ. ابْتَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِنِّمَاءً لِأَمْرِهِ، وَعَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفَاداً لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ.

فَرَأَى الْأَمَمَ فِرْقاً فِي أَدْيَانِهَا، عُكِّفَ عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْتَانِهَا، مُنْكَرَةً لِلَّهِ مَعَ عِزِّهَا. فَأَنَارَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ظُلُمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ الْقُلُوبِ بُهْمَهَا، وَجَلَّى عَنِ الْأَبْصَارِ غُمَمَهَا، وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالْهِدَايَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

ثُمَّ قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَبْضٌ رَاقٍ وَاخْتِيَارٍ، وَرَغْبَةً وَإِثَارٍ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ تَعَبٍ هَذِهِ الدَّارِ فِي رَاحَةٍ، قَدْ حُفَّ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ، وَرِضْوَانِ الرَّبِّ الْعَفَّارِ، وَمُجَاوَزَةِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَى أَبِي نَبِيٍّ وَأَمِينِهِ عَلَى الْوَحْيِ، وَصَفِيٍّ وَخَيْرَتِهِ مِنَ الْخَلْقِ وَرَضِيٍّ، وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى أَهْلِ الْمَجْلِسِ وَقَالَتْ:

أَنْتُمْ عِبَادَ اللَّهِ نُصِبَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَحَمَلَةُ دِينِهِ وَوَحْيِهِ، وَأَمْنَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَبُلَاغُهُ إِلَى الْأَمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقَّ لَكُمْ لِلَّهِ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ.

كِتَابُ اللَّهِ النَّاطِقُ، وَالْقُرْآنُ الصَّادِقُ، وَالتَّوَرُّ السَّاطِعُ، وَالضِّيَاءُ اللَّامِعُ، بَيِّنَةٌ بِصَائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرُهُ، مُتَجَلِّيةٌ ظَوَاهِرُهُ، مُعْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْيَاعُهُ، قَائِدٌ إِلَى الرِّضْوَانِ اتِّبَاعُهُ، مُؤَدِّ إِلَى النِّجَاةِ إِسْمَاعُهُ.

بِهِ تُنَالُ حُجُجُ اللَّهِ الْمُنَوَّرَةُ، وَعَزَائِمُهُ الْمُفَسَّرَةُ، وَمَحَارِمُهُ الْمُحَذَّرَةُ، وَبَيِّنَاتُهُ الْجَالِيَّةُ، وَبَرَاهِينُهُ الْكَافِيَّةُ، وَفَضَائِلُهُ الْمُنْدُوبَةُ، وَرُخْصَةُ الْمُؤَهَّوْبَةُ، وَشَرَايِعُهُ الْمَكْتُوبَةُ.

فَجَعَلَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً لَكُمْ مِنَ الشَّرِّ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الْكِبَرِ، وَالزَّكَاةَ تَرْكِيبَةً لِلنَّفْسِ وَنَمَاءً فِي الرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ تَثْبِيثاً لِلْإِخْلَاصِ، وَالْحَجَّ تَشْيِيداً لِلدِّينِ، وَالْعَدْلَ تَنْسِيْقاً لِلْقُلُوبِ، وَطَاعَتَنَا نِظَاماً لِلْمِلَّةِ، وَإِمَامَتَنَا أَمَاناً مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلْإِسْلَامِ، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجَابِ الْأَجْرِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَامَّةِ، وَبِرَّ الْوَالِدَيْنِ وَقَايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الْأَرْحَامِ مَنْمَاءً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حِصْناً لِلدَّمَاءِ، وَالْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ تَعْرِيضاً لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينَ تَغْيِيراً لِلْبُخْسِ، وَالتَّهْيِ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزِيهاً عَنِ الرَّجْسِ، وَاجْتِنَابَ الْقَذْفِ حِجَاباً عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السَّرْقَةِ إِيْجَاباً لِلْعِفَّةِ. وَحَرَّمَ اللَّهُ الشَّرْكَ إِخْلَاصاً لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، {فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} وَ أَطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}.

ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا النَّاسُ! اْعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ، وَأَبِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَقُولُ عَوْداً وَبَدَءاً، وَلَا أَقُولُ مَا أَقُولُ غَلْطاً، وَلَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطاً: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} فَإِنْ تَعَزَّوْهُ وَتَعَرَّفُوهُ تَجِدُوهُ أَبِي دُونَ نِسَائِكُمْ، وَأَخَا ابْنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ، وَ لِنِعْمِ الْمَغْزِيُّ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِالنَّذَارَةِ، مَايلاً عَنِ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ، ضَارِباً تَبَجُّهً، آخِذاً بِأَكْظَامِهِمْ، دَاعِياً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، يَكْسِرُ الْأَصْنَامَ، وَيَنْكُثُ الْهَامَ، حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلُّوا الدُّبُرَ، حَتَّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأَسْفَرَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ، وَخَرِسَتْ شَفَاشِقُ الشَّيَاطِينِ، وَطَاحَ وَشِيْطُ النِّفَاقِ، وَانْحَلَّتْ

عَقْدَ الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ، وَفُهِتُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيْضِ الْخِمَاصِ، وَكُنْتُمْ عَلَى شِفَا حُفْرَةِ مِنَ النَّارِ، مُدَقَّةَ الشَّارِبِ، وَنُهِزَةَ الطَّامِعِ، وَفُتِسَةَ الْعَجَلَانِ، وَمَوُطِئِ الْأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَفْتَاتُونَ الْوَرَقَ، أَذِلَّةَ خَاسِيَيْنِ، {تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ}.

فَأَنْقَذَكُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ اللَّتَايَا وَالتِّي، وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِبِهِمِ الرَّجَالِ وَذُوبَانِ الْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ}، وَأَوْجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفَعَرَتْ فَاعِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أَخَاهُ فِي لَهَوَاتِهَا، فَلَا يَنْكَفِي حَتَّى يَطَأَ صِمَاحَهَا بِأَخْمَصِهِ، وَيُخِمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكْدُودًا فِي ذَاتِ اللَّهِ، مُجْتَهِدًا فِي أَمْرِ اللَّهِ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّدِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، مُشَمَّرًا نَاصِحًا، مُجِدِّدًا كَادِحًا - وَأَنْتُمْ فِي رِفَاهِيَّةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَادِعُونَ فَاكِهِونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنَا الدَّوَائِرِ، وَتَتَوَكَّفُونَ الْأَخْبَارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النَّزَالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ الْقِتَالِ.

فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ وَمَأْوَى أَصْفِيَائِهِ، ظَهَرَ فِيكُمْ حَسِيكَةُ النِّفَاقِ وَسَمَلُ جِلْبَابِ الدِّينِ، وَنَطَقَ كَاطِمُ الْغَاوِينَ، وَتَبَغَّ خَامِلُ الْأَقْلَينِ، وَهَدَرَ فَنِيْقُ الْمُبْطِلِينَ.

فَخَطَرَ فِي عَرَصَاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَعْرِزِهِ، هَاتِفًا بِكُمْ، فَأَلْفَاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجِيبِينَ، وَلِلْعَرَّةِ فِيهِ مُلَاحِظِينَ. ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفَافًا، وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفَاكُمْ غَضَابًا، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبْلِكُمْ، وَأُورِدْتُمْ غَيْرَ شَرِبِكُمْ، هَذَا وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالْكَلِمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلُ، وَالرَّسُولُ لَمَّا يُقْبَرُ، ابْتِدَارًا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، {أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}.

فَهَيِّهَاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟ وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أُمُورُهُ ظَاهِرَةٌ، وَأَحْكَامُهُ زَاهِرَةٌ، وَأَعْلَامُهُ بَاهِرَةٌ، وَزَوَاجِرُهُ لَاحِظَةٌ، وَأَوَامِرُهُ وَاضِحَةٌ، قَدْ خَلَفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، أَرْعَبَتْهُ عَنْهُ تُرِيدُونَ، أَمْ بَغْيَرِهِ تَحْكُمُونَ، {يُنْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ السَّلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا رَيْثَ أَنْ تَسْكُنَ نَفَرَتُهَا، وَيَسْلَسَ قِيَادُهَا ثُمَّ أَخَذْتُمْ تُورُونَ وَقَدَرْتُمْ، وَنَهَيْجُونَ جَمَرَتَهَا، وَتَسْتَجِيبُونَ لِهَتَافِ الشَّيْطَانِ الْعَوِيِّ، وَأَطْفَاءِ أَنْوَارِ الدِّينِ الْجَلِيِّ، وَاهْمَادِ سُنَنِ النَّبِيِّ الصَّفِيِّ، تُسِرُّونَ حَسَوًا فِي ارْتِغَاءٍ، وَتَمْشُونَ لِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي الْخَمْرِ وَالْضَّرَاءِ، وَنَصِيرُ مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ حَزِّ الْمُدَى، وَوَحْزِ السَّنَانِ فِي الْحَشَا، وَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَلَا إِرْثَ لَنَا، {أَفَحُكُّمُ الْجَاهِلِيَّةِ تَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أَفَلَا تَعْلَمُونَ؟ بَلَى تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الصَّاحِيَةِ أَنَّى ابْنَتُهُ.

يُهَا الْمُسْلِمُونَ أَغْلَبَ عَلَى ارْتِثِهِ يَا ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ! أَفِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ تَرِثَ أَبَاكَ، وَلَا ارْثَ أَبِي؟ {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا}، أَفَعَلَى عَمَدٍ تَرَكْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَتَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، اذْ يَقُولُ: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ}، وَقَالَ فِيمَا اقْتَضَى مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ اذْ قَالَ رَبِّ {هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثَنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} وَقَالَ: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} وَقَالَ: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنْثَى} وقال: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}، وَزَعَمْتُمْ أَلَا حِظَّوَةَ لِي، وَلَا إِرْثَ مِنْ أَبِي لَارِجَمَ بَيْنَنَا!

أَفَخَصَّكُمُ اللَّهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْهَا أَبِي؟ أَمْ هَلْ تَقُولُونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لَا يَتَوَارَثَانِ، وَلَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ؟! أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمَ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَإِبْنِ عَمِّي؟ فَذُوكُهَا مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً.

تَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعَمَ الْحَكَمُ اللَّهُ، وَ الرَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ مَا تَحْسِرُونَ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدُمُونَ، {وَلِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ}.

ثُمَّ رَمَتْ بِطَرْفِهَا نَحْوَ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: يَا مَعَاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضَادَ الْمَلَّةِ، وَأَنْصَارَ الْإِسْلَامِ! مَا هَذِهِ الْعَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟ وَالسَّنَةُ عَنْ ظُلَامَتِي؟ أَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبِي يَقُولُ: {الْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وَلَدِهِ؟} سَرَعَانَ مَا أَحَدَثْتُمْ، وَعَجَلَانَ ذَا إِهَالَةٍ، وَلَكُمْ طَاقَةٌ بِمَا أَحَاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلَى مَا أَطْلُبُ وَأَزَاوِلُ!

أَتَقُولُونَ مَاتَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟! فَحَطَبٌ جَلِيلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ، وَاسْتَنَهَرَ فَنَقُهُ، وَانْفَتَقَ رَنَقُهُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكُسِفَتِ النَّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الْأَمَالُ، وَخَشَعَتِ الْجِبَالُ، وَأُضِيعَ الْحَرِيمُ، وَأَزِيلَتِ الْحُرْمَةُ عِنْدَ مَمَاتِهِ. فَيَلِكُ وَاللَّهِ النَّازِلَةُ الْكُبْرَى، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى، لَا مِثْلَهَا نَازِلَةٌ وَلَا بَائِقَةٌ عَاجِلَةٌ أَعْلَنَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- فِي أَفْنِيَّتِكُمْ فِي مُمَسَاكُمُ وَمُصْبِحِكُمْ هِتَافاً وَصُرَاحاً وَتِلَاوَةً وَإِلْحَاناً، وَلَقَبْلَهُ مَا حَلَّ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، حُكْمٌ فَضْلٌ وَقَضَاءٌ حَتْمٌ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}.

أَيُّهَا بَنِي قَيْلَةٍ! أَأَهْضَمُ ثَرَاثُ أَبِيهِ وَأَنْتُمْ بِمَرَأَى مَنِّي وَمَسْمَعٍ، وَمُبْتَدِئٍ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمْ الدَّعْوَةُ، وَتَشْمَلُكُمْ الْخَبَرَةُ، وَأَنْتُمْ ذُوو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالْأَدَاةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمْ السَّلَاحُ وَالْجُنَّةُ؛ ثَوَافِيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلَا تُجِيبُونَ، وَتَأْتِيَكُمُ الصَّرْحَةُ فَلَا تُغَيُّوْنَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكَفَاحِ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَالنُّجَبَةُ الَّتِي انْتَجَبَتْ، وَالْخَيْرَةُ الَّتِي اخْتِيرَتْ! قَاتَلْتُمْ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمْ الْكَدَّ وَالنَّعَبَ، وَنَاطَحْتُمُ الْأَمَمَ، وَكَافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلَا تَبْرَحُ أَوْ تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتِمِرُونَ حَتَّى دَارَتْ بِنَا رَحَى الْإِسْلَامِ، وَدَرَّ حَلَبُ الْأَيَّامِ، وَخَضَعَتْ نَعْرَةُ الشَّرِكِ، وَسَكَنْتْ قَوْرَةُ الْإِفْكِ، وَخَمَدَتْ نِيرَانُ الْكُفْرِ، وَهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرَجِ، وَاسْتَوْسَقَ نِظَامُ الدِّينِ؛ فَأَتَى جُرْتُمُ بَعْدَ الْبَيَانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الْإِعْلَانِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الْإِقْدَامِ، وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ؟ {أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَآؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

أَلَا قَدْ أَرَى أَنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إِلَى الْخَفْضِ، وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بِالْأَدْعَةِ، وَجَجَوْتُمْ مِنَ الصَّيْقِ بِالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ مَا وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمْ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ، {فَإِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}.

أَلَا وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْخَذَلَةِ الَّتِي خَامَرْتَكُمْ، وَالْعَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشَعَرْتَهَا قُلُوبُكُمْ، وَلَكِنَّهَا فَيَضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنَا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ.

فَدُونَكُمْوَهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبْرَةَ الظَّهْرِ، نَقَبَةَ الْخُفِّ، بَاقِيَةَ الْعَارِ، مَوْسُومَةَ بَغْضَبِ اللَّهِ وَشَنَارِ الْأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفِيدَةِ.

فَبَعَيْنِ اللَّهِ مَا تَفْعَلُونَ {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْصِرُونَ}، وَأَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، {فَاعْمَلُوا إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}

فَأَجَابَهَا أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ، فَقَالَ: يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَقَدْ كَانَ أَبُوكَ بِالْمُؤْمِنِينَ عَطُوفاً كَرِيماً، رَوْوفاً رَحِيماً،

وَعَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَعِقَابٌ عَظِيمٌ ؛ فَإِنْ عَزَوْنَاهُ وَجَدْنَاهُ أَبَاكَ دُونَ النَّسَاءِ، وَأَخًا لِبَعْلِكَ دُونَ الْأَخِلَّاءِ، آثَرُهُ عَلَى كُلِّ حَمِيمٍ، وَسَاعَدَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ جَسِيمٍ، لَا يُحِبُّكُمْ إِلَّا كُلُّ سَعِيدٍ، وَلَا يُبْغِضُكُمْ إِلَّا كُلُّ شَقِيٍّ ؛ فَأَنْتُمْ عِترَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الطَّيِّبُونَ، وَالْخَيْرَةُ الْمُتَنَجِّبُونَ، عَلَى الْخَيْرِ أَدَلَّتْنَا، وَإِلَى الْجَنَّةِ مَسَالِكُنَا، وَأَنْتِ - يَا خَيْرَةَ النَّسَاءِ وَابْنَةَ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ - صَادِقَةٌ فِي قَوْلِكَ، سَابِقَةٌ فِي وَفُورِ عَقْلِكَ، غَيْرُ مَرْدُودَةٍ عَنْ حَقِّكَ، وَلَا مَصْدُودَةٌ عَنْ صِدْقِكَ، وَاللَّهُ، مَا عَدَوْتُ رَأَيْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: (نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ ذَهَبًا وَلَا فِصَّةً وَلَا دَارًا وَلَا عِقَارًا، وَإِنَّمَا نُورِثُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ، وَالْعِلْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وَمَا كَانَ لَنَا مِنْ طُعْمَةٍ فَلَوْلِي الْأَمْرِ بَعْدَنَا أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ بِحُكْمِهِ).

وَقَدْ جَعَلْنَا مَا حَاوَلْتِهِ فِي الْكِرَاعِ وَالسَّلَاحِ يُقَابِلُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ، وَيُجَاهِدُونَ الْكُفَّارَ، وَيُجَالِدُونَ الْمَرَدَّةَ ثُمَّ الْفُجَّارَ.

وَذَلِكَ بِاجْتِمَاعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ أَتَفَرَّدْ بِهِ وَخَدِي، وَلَمْ أَسْتَبِدَّ بِمَا كَانَ الرَّأْيُ فِيهِ عِنْدِي.

وَهَذِهِ حَالِي، وَمَالِي هِيَ لَكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ، لِأَنْزَوِي عَنْكَ وَلَا نَدْخُرُ دُونَكَ، وَأَنْتِ سَيِّدَةُ أُمَّةٍ أَيْبِكَ، وَالشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ لِبَنِيكَ، لَا يُدْفَعُ مَا لَكَ مِنْ فَضْلِكَ، وَلَا يُوضَعُ مِنْ فَرْعِكَ وَأَصْلِكَ ؛ حُكْمُكَ نَافِذٌ فِيمَا مَلَكَتْ يَدَايَ، فَهَلْ تَرَيْنَ أَنْ أَخَالَفَ فِي ذَلِكَ أَبَاكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟

فَقَالَتْ عَلَيْهَا السَّلَامُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ صَادِفًا، وَلَا لِأَحْكَامِهِ مُخَالِفًا، بَلْ كَانَ يَتَّبِعُ آثَرَهُ، وَيَقْفُو سُورَهُ، أَفْتَجَمَعُونَ إِلَى الْعُدْرِ اغْتِيلًا عَلَيْهِ بِالزُّورِ ؛ وَهَذَا بَعْدَ وَفَاتِهِ شَبِيهٍ بِمَا بُغِيَ لَهُ مِنَ الْغَوَائِلِ فِي حَيَاتِهِ.

هَذَا كِتَابُ اللَّهِ حَكَمًا عَدْلًا، وَنَاطِقًا فَضْلًا، يَقُولُ:

{يَرْثُنِي وَيَرِثُ مَنْ آلٍ يَعْقُوبُ}، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} فَبَيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا وَرَّعَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْسَاطِ، وَشَرَّعَ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْمِيرَاثِ، وَأَبَاحَ مِنْ حَظِّ الذُّكْرَانِ وَالْإِنَاثِ مَا أَرَاكَ عِلَّةَ الْمُبْطِلِينَ، وَأَزَالَ التَّنَظِّيَّ وَالشُّبُهَاتِ فِي الْغَابِرِينَ، كَلَّا {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ} وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ { فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَ صَدَقَتْ ابْنَتُهُ؛ أَنْتِ مَعْدِنُ الْحِكْمَةِ، وَمَوْطِنُ الْهُدَى وَ الرَّحْمَةِ، وَرَكْنُ الدِّينِ وَعَيْنُ الْحُجَّةِ، لَا أُبْعِدُ صَوَابَكَ، وَلَا أُنْكِرُ خُطَابَكَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، قَلَدُونِي مَا تَقَلَّدْتُ، وَ بِاتِّفَاقٍ مِنْهُمْ أَخَذْتُ مَا أَخَذْتُ غَيْرَ مُكَابِرٍ وَلَا مُسْتَبِدٍّ وَلَا مُسْتَأْثِرٍ، وَهُمْ بِذَلِكَ شُهَدَاءٌ.

فَالْتَفَتَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامَ وَقَالَتْ: مَعَاشِرَ النَّاسِ الْمُسْرِعَةِ إِلَى قَبْلِ الْبَاطِلِ، الْمُغْضِيَةِ عَلَى الْفِعْلِ الْقَبِيحِ الْخَاسِرِ {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَا أَسَأْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصَارِكُمْ، وَ لَبِئْسَ مَا تَأْوَلْتُمْ، وَسَاءَ مَا أَشْرْتُمْ، وَشَرَّ مَا مِنْهُ اعْتَصَنْتُمْ، لَتَجِدَنَّ - وَاللَّهُ - مَحْمَلَهُ ثَقِيلًا، وَ غِبَّهُ وَبِيلًا إِذَا كُشِفَ لَكُمْ الْغِطَاءُ، وَبَانَ مَا وَرَاءَهُ الضَّرَاءُ، {وَبَدَا لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَحْتَسِبُونَ} وَ {خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ}.

ثُمَّ عَطَفَتْ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَالَتْ:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أَنْبَاءٌ وَ هَنْبَةٌ ** لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكُفِّرِ الْخَطْبُ

إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقَدْ الْأَرْضِ وَابِلُهَا ** وَاخْتَلَّ قَوْمُكَ فَاشْهَدْهُمْ وَقَدْ نَكَبُوا

وَكُلُّ أَهْلٍ لَهُ قُرْبَى وَمَنْزِلَةٌ ** عِنْدَ الْإِلَهِ عَلَى الْأَذْنَيْنِ مُقْتَرِبٌ

أَبَدَتْ رِجَالَ لَنَا نَجْوَى صُدُورِهِمْ ** لَمَّا مَضَيْتِ وَحَالَتِ دُونَكَ التُّرْبُ

تَجَهَّمْتُنَا رِجَالٌ وَاسْتُخِفَّ بِنَا ** لَمَّا فُقِدَتْ وَكُلُّ الْأَرْضِ مُعْتَصَبٌ

وَكُنْتَ بَدْرًا وَنُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ ** عَلَيْكَ تُنْزَلُ مِنْ ذِي الْعِزَّةِ الْكُتُبُ

وَكَانَ جِبْرِيلُ بِالْآيَاتِ يُونِسُنَا ** فَقَدْ فُقِدَتْ فَكُلُّ الْخَيْرِ مُحْتَجِبٌ

فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ الْمَوْتُ صَادِقَنَا ** لَمَّا مَضَيْتِ وَحَالَتِ دُونَكَ الْكُتُبُ

إِنَّا زُرُّنَا بِمَا لَمْ يُرَزْ ذُو شَجَنِ ** مِنَ الْبَرِّيَّةِ لَا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ

ثُمَّ انْكَفَأَتْ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَوَقَّعُ رُجُوعَهَا إِلَيْهِ، وَيَتَطَلَّعُ طُلُوعَهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ بِهَا الدَّارُ قَالَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ! اسْتَمَلَّتْ شِمْلَةَ الْجَنِينِ، وَقَعَدَتْ حُجْرَةَ الظَّنِّينِ! نَقَضَتْ قَادِمَةَ الْأَجْدَلِ، فَخَانَكَ رِيْشُ الْأَعْزَلِ؛ هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ يَبْتَزِّي نُحَيْلَةَ أَبِي وَبُلْعَةَ ابْنِي، لَقَدْ أَجْهَرَ فِي خِصَامِي، وَالْفَيْئَةُ أَلَدَ فِي كَلَامِي، حَتَّى حَبَسْتَنِي قَيْلُهُ نَصْرَهَا، وَالْمَهَاجِرَةُ وَصَلَهَا، وَغَضَّتِ الْجَمَاعَةُ دُونِي طَرْفَهَا؛ فَلَا دَافِعَ وَلَا مَانِعَ، خَرَجْتُ كَاطِمَةً، وَعُدْتُ رَاغِمَةً، أَضْرَعْتُ خَدَّكَ يَوْمَ أَضْعَعْتُ خَدَّكَ، إِفْتَرَسَتْ الذُّنَابَ، وَافْتَرَشَتْ التُّرَابَ، مَا كَفَفْتُ قَائِلًا، وَلَا أَغْنَيْتُ بَاطِلًا، وَلَا خِيَارَ لِي. لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَهْنَيْتِي وَدُونِ زَلَّتِي.

عَذِيرِي اللَّهُ مِنْكَ عَادِيًا وَمِنْكَ حَامِيًا. وَيَلَايَ فِي كُلِّ شَارِقٍ، مَاتَ الْعَمْدُ، وَوَهَتْ الْعَصْدُ.

شَكُوَايَ إِلَى أَبِي، وَعَدُوَايَ إِلَى رَبِّي. اللَّهُمَّ أَنْتَ أَشَدُّ قُوَّةً وَحَوْلًا، وَأَحَدٌ بِأَسَاءَ وَتَنَكِيلًا.

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَاوَيْلَ عَلَيْكَ، الْوَيْلُ لِشَانِيكَ، نَهْنِهِي عَنْ وَجْدِكَ يَا ابْنَةَ الصَّفْوَةِ وَبَقِيَّةِ النَّبُوَّةِ، فَمَا وَتَيْتُ عَنْ دِينِي، وَلَا أَخْطَأْتُ مَقْدُورِي، فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدِينَ الْبُلْعَةَ فَرِزْقِكَ مَضْمُونٌ، وَكَفَيْلِكَ مَأْمُونٌ، وَمَا أَعَدَّ لَكَ أَفْضَلُ مِمَّا قُطِعَ عَنْكَ، فَاحْتَسِبِي اللَّهَ، فَقَالَتْ: حَسْبِيَ اللَّهُ، وَأَمْسَكَتُ.